

الدلالة في القراءات القرآنية اتحاف فضلاء البشر أنموذجاً

م.م. هدى صبيح محمد

جامعة ذي قار/ كلية الزراعة والأهوار

huda.s@utq.edu.iq

الملخص:

عدّ علم القراءات القرآنية من العلوم المهمة التي وقف عندها محلل النص القرآني، إذ تجدر الإشارة إلى أنه لا يمكن أن يُحلل النص القرآني بمعزل عن تنوع قراءاته، فهي رافد من الروافد التي تعين على فهم المعنى النصي للقرآن الكريم وبيان مقاصده، فقد رصد البحث العلاقة الوثيقة بين القراءة القرآنية والدلالة، مركزاً على إظهار تلك العلاقة الوثيقة، لكون القراءات تثري النص القرآني بنوع من التكتيف الدلالي المنطوق موضحة تنوع السياقات القرآنية وفقاً لتنوع القراءة، فكان لكتاب اتحاف فضلاء البشر وجهة خاصة في بيان تلك الدلالة وارتباطها بالقراءة القرآنية مما جعلنا نتوجه إلى بيان ذلك الأثر العلائقي فيه واستجلاء أسراره. الكلمات المفتاحية: (الدلالة، القراءات القرآنية، اتحاف، فضلاء البشر).

Significance in Quranic readings

The union of human virtues is a model

Hoda Sobeih Mohammed

Dhi Qar University/ College of Agriculture and the Marshes

Abstract:

The science of Qur'anic readings is considered one of the important sciences that the Qur'anic text analyst stood at. The document is the house of Qur'anic reading and significance, focusing on showing that close relationship, because the readings enrich the Qur'anic text with a kind of verbal semantic condensation, explaining the diversity of Qur'anic contexts in accordance with the diversity of reading. That is the relational effect on it and reveal its secrets.

Keywords: (significance, Quranic readings, sympathy, virtues of human beings).

مقدمة:

الحمد لله أقصى مبلغ الحمد، والشكر له من قبل ومن بعد، على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وسبحانه بعدد ما سبح الملائكة الحافون حول عرشه الكريم، وصلى الله على أفضل الخلق والمرسلين محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خاتم الأنبياء وسيد الأوصياء وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين علي بن أبي طالب (عليه السلام) والزهراء البتول (عليها السلام) والأئمة المعصومين.

وبعد ...

القراءات القرآنية منبع غزير وثري بالتوجيهات اللغوية التي تعمل على بيان المعاني القرآنية، ولكون القراء نحويون أيضاً، فقد بذلوا جهودهم في دراستهم لكتاب الله العزيز في توجيه القواعد النحوية خدمة لمعاني النصّ القرآني، وقد انتقت الدراسة كتاب اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر للعلامة الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدميّاطي المتوفى (١١١٩هـ) عينة لبحثها لمعرفة التوجيهات اللغوية في القراءات القرآنية، والأثر المترتب فيها على دلالة سياق النصّ القرآني، وتوضيح أهم الأمور التي حرص عليها القراء في قراءتهم القرآنية.

المبحث الأول

التوجيه الصوتي في القراءة القرآنية

تعدُّ دراسة الأصوات المحطة الأولى في مجال الدراسة اللغوية بفروعها الأربعة (الصوتية، الصرفية، النحوية، والدلالية) ، وهي أقرب إلى إدراك معاني النصوص، في حين تعدُّ دراسة الإيقاع الموسيقي للفونيمات قيمة تعبيرية لها وقعها في الأذن.

١- الإبدال

مثل الإبدال ظاهرة صوتية عملت في إثراء النصوص الواردة فيها بنوع من الحس الفني والذائقة اللغوية التي تجذب القارئ وتشده نحو التأمل في مثل هذا النوع من التبدلات الصوتية التي تدل على إقامة حرف مكان حرف في بعض الكلمات مع بقاء الحروف الأخرى، إذ تكون هذه الكلمات مشتركة في حرفين مثلاً وإبدال الحرف الثالث في إحداها بحرف آخر قريب في المخرج وقد يكون بعيداً (المبارك، دت، ٦٦) ، فنلاحظ أن هذا الإبدال يأتي لمعانٍ عدة حسب نوعية الأصوات المبدلة وقيمتها الصوتية ودلالاتها السياقية.

ومن أمثلة اختلاف القراءة القرآنية في جانب الإبدال الصوتي الاختلاف في لفظة (غشاوة) في قوله تعالى : ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: ٧) ، فقرأها الحسن بعين مهملة مضمومة " (الدمياطي، ١٩٩٨م، ١٦٩) ، فجاءت دلالتها على وفق تلك القراءة بمعنى "الظلمة التي تعترض العين فيقال رجل أعشى وامرأة عشواء...عشي عن كذا نحو عمي عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ (الزخرف / ٣٦) " (الاصفهانى، دت، ٣٣٥-٣٣٦) ، والعشي هو سوء البصر بالليل والنهار ويكون في الناس والدوابِّ والإبل والطيور وهو ذهاب البصر،

ويكون أيضًا سوء البصر من غير عمى، وفي الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل (ابن منظور، دت، ٢٢٥) ، ونجد أن المعنى على تلك القراءة محمول على المجاز بأن جعل على قلوبهم -أي عقولهم- في عدم نفاذ الإيمان والحق والإرشاد إليها وجعل أسماعهم في استكاكها عن سماع الآيات والنذر، وجعل أعينهم في عدم الانتفاع بما ترى من المعجزات والدلائل وكأنها مختوم عليها (ابن عاشور، ١٩٨٤، ج ١/٢٥٤-٢٥٥) ، فأبصارهم إبصار غفلة لاعبرة وأنهم لا يرون آيات الله تعالى في ظلمات كفرهم ولو زالت لأبصروها (الالوسي، دت، ج ١/١٣٧) ، وهي من الآيات التي تبين تماثل صفات المنافقين الظاهرية والباطنية وتطابقها .

أما على قراءة الجمهور بالغين المعجمة المكسورة (غشاوة) على معنى فعالة من غشاه وتغشاه إذا حجبته، ومما يصاغ له على وزن فعالة بكسر الفاء معنى الاشتمال على شيء مثل العمامة والعلاوة واللفافة (ابن عاشور، ١٩٨٤، ج ١/٢٥٤) ، وجاء التنوين في الآية المباركة لاحتمالات عدّة منها للدلالة على نوع من الاغطية غير الذي هو متعارف لدى الناس ، أو للدلالة على التعظيم بمعنى (غشاوة أي غشاوة) ، أو يكون محمولاً على المعنيين، أي النوعية والتعظيم كما هو في قوله تعالى: ﴿فقد كذبت رسل﴾ (الالوسي، دت، ج ١/١٣٧) ، فالغشاوة غطاء يحول بين الإبصار وبين النظر إلى الحق ولو نظرت لم تنتفع (بن عثيمين ، دت، ج ١/٣٧).

يبدو أن القراءتين تظهران المعنى السياقي للنص القرآني في منحنى واحد وإن كانت الدلالة المعجمية مختلفة لكل منهما، إلا أنّ صوت العين والغين والتباين الصوتي فيما بينهما وارتباطهما مع الأصوات الأخرى داخل البنية الصرفية وترابطها مع ما يجاورها من

مفردات قرآنية وضح لنا ايدلوجية الارتباط السياقي للبنى النصية وأثره في دلالة النصوص.

٢- الإشمام

من الظواهر الصوتية التي اختصت في المرفوعات والمضموم من الحركات دون غيرها من الحركات الاخرى لأنها من الواو، والواو تخرج من الشفتين وفيهما تعالج ، أضف إلى ذلك أن الإشمام يشمل حالتي الوقف والوصل (الداني ٢٠٠٠م، ج ٣٧/١). وهو مصدر من الفعل أشمَّ أي مخالطة صوت الحرف صوتاً آخر عند تشكيله فهو حركة بالشفتين تُرى بالعين المجردة ولا يُسمع لها صوت (العبيدي، ٢٠٠٧م، ٤٢).

سبب هذه الظاهرة القرآنية كما يعلاها القيسي (ت ٤٣٧هـ) " أن العرب استعملتها في الوقف لتبيين الحركة كيف كانت في الوصل وأصل الروم أظهر للحركة من أصل الإشمام لأن الروم يسمع ويرى والإشمام يرى ولا يسمع فمن رام الحركة أتى بدليل قوي على أصل حركة الكلمة في الوصل ، ومن أشم الحركة أتى بدليل ضعيف على ذلك" (القيسي، ١٩٨٤، ج ١/١٢٢).

من المسائل التي عالجها القراء في هذا الجانب هي إشمام حرف بحرف آخر أي خلط صوت بصوت مقارب له في المخرج، وهذا يعدُّ أحد أنواع الإشمام، ومنه: إشمام الصاد بالسين في قوله تعالى : (لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ). إذ قرأها بالسين قبل من طريق ابن مجاهد ورويس وبالإشمام خلف عن حمزة (الدمياطي، ١٩٩٨م، ٤١٣)، وكما هو معروف أن حرفي الصاد والسين من الأصوات اللثوية المهموسة التي عند النطق بهما ينفرج الوتران الصوتيان بعضهما عن بعض في أثناء مرور الهواء من الرئتين بحيث يسمحان له بالخروج من دون أن يقابله أي اعتراض

في طريقه ومن ثم لايتذبذب الوتران الصوتيان، فعند النطق بالسين يقترب رأس اللسان من منطقة اللثة العليا ويلامسها بحيث يترك منفذاً ضيقاً للهواء المزفور ويكون مجوفاً وسطه طولاً وعلى الأخص في موضع النطق، إذ يكون المنفذ صغيراً ومدوراً ويفترق عنه صوت الصاد أنه يرجع إلى الخلف قليلاً مما يؤدي إلى الإطباق أو التضخيم ويرتفع مؤخره تجاه الحنك اللين (بركة، دت، ١٢٣) ، لذلك كانت قراءة لفظة (صراط) بالسين عند قبيل وبالادغام ما بين السين والصاد في قراءة خلف عن حمزة وكأن هناك صوت ممتزج بين الصوتين (السين والصاد) ويكون مهموساً أيضاً غير أنه لايمثل أحد الصوتين ، والصراط هو السبيل الواضح إذ الصِّراط" لغة في السرط والصاد أعلى لمكان المضارعة وإن كانت السين هي الأصل " (ابن منظور، دت، ج٧/٣١٣) ، ولأن العربية تميل إلى الانسجام أثناء النطق حتى لا ينتقل اللسان من صوت مدّ إلى صوت مدّ آخر مغاير له في النطق (المطلبي، ١٩٨٤، ١٨٣) ، ولذلك أخذ نفر من بلعنبر يصيرون السين صاداً إذا كانت في المقدمة وجاء بعدها أحد هذه الحروف (طاء أو قاف أو غين أو خاء)، ولأن الطاء حرف يكون موضع اللسان عند النطق فيه الحنك فينطبق الصوت وتقلب السين صاداً صورتها صورة الطاء (ابن منظور، دت، ج٧/٣١٣) ، لذلك انتقل النطق عند من قرأها بالسين للانسجام الحاصل بين صوتي السين والصاد واتحاد المخرج بينهما مع فارق بسيط.

ومن الأنواع الأخرى للإشمام، الإشمام بالحركات أي خلط الحركة بأخرى، ويحدث هذا النوع بالرفع والضم لا غير؛ لأنهما من الواو والواو تخرج من الشفتين وفيهما (الداني، ٢٠٠٠، ٩٦-٩٧) ، كقوله تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا) (الكهف / ٥٠)، فقد قرأها أبو جعفر بضم التاء وله من رواية ابن وردان إشمام الكسرة الضم والوجهان صحيحان (الدمياطي، ١٩٩٨، ٣٦٨).

فهنا على قراءة الإشمام نجد صوتًا مختلطًا يترجح نطقه بين الكسرة والضمة وأن النطق بالكسرة كان متأت من أن اللسان كان قد أخذ وضع النطق بالكسرة إلا أن الشفتين استدارتا وكأنهما تريدان النطق بالضمة فنتج من جراء ذلك هذا الصوت المشمم (المطلبي، ١٩٨٤، ١٧٠) .

وهذا النوع من الإشمام وإن حصل في الكلمة غير أنه لم يفض إلى تغير المعنى النصي في الآية المباركة، لأن السجود كمال الخضوع بحيث لا يبقى اثر من الانانية فكان حالة تامة وهو لا يجوز لغير الله تعالى ، وجاء السجود هنا لأدم بأن يتخذوه قبلة وقيل أمروا بالتذلل والقيام بمصالحه ومصالح اولاده - اولاد آدم - فاتمروا إلا ابليس لجهله حقيقة الحال في السجود واغفاله فلم يتوجه الى الروح التي ينفخ فيها الله تعالى من روحه بل توجه الى الظاهر الجسماني المادي لذلك أبى واستكبر (المصطفوي ، ١٣٨٥، ج ٥/٦٠-٦٥) (١)، فالسجود هنا هو سجود تحية وإكرام وتعظيم لله تعالى واعتراف بفضله فكان الاشمام في هذا الموضوع أولى لتوظيف المعنى القرآني.

المبحث الثاني

التوجيه الصرفي للقراءات القرآنية

المستوى الصرفي هو ثاني المستويات اللغوية التي يقف عليها المحلل اللغوي الذي يمكن أن يعينه على فهم النص ومراده بواسطة البنى الصرفية وماتحملة من قيم دلالية معبرة تدل عليها الأوزان والصيغ المقررة لكل عنصر لغوي، إذ المفردات اللغوية تحمل في مكنوناتها وأنويتها معاني خاصة صرفية وسياقية.

١- التنوع الدلالي للبنى الصرفية:

ومن أمثلة القراءات القرآنية التي وجهت فيها القراءة توجيهها صرفياً أكسب الصيغة الصرفية وجوها دلالية عدة لاختلاف القراءة القرآنية فيها، قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ (المرسلات: ٣٣)^(١)، إذ اختلف في قراءة (جَمَالَاتٌ) فذهب:

١- حفص وحمزة والكسائي وخلف بكسر الجيم بلا ألف أي (جِمَالَتٌ) بوزن رسالة ووافقهم الأعمش جمع (جمل) كحجر حجارة وقيل اسم جمع.

٢- وقرأ رويس بضم الجيم وبألف بعد اللام أي (جُمَالَاتٌ) وهي حبال غليظة من حبال السفينة.

٣- ومن قرأها بكسر الجيم مع الألف على الجمع إبل أما جمعاً لجمالة القراءة الأولى أو لجمال فيكون جمع الجمع.

ونلاحظ تغير دلالة اللفظة القرآنية مع تغير الحركة الإعرابية بين الضم والكسر والصيغة الصرفية بين (فَعَالَت) و(فُعَالَات) و(فِعَالَات)، إذ تشير كل صيغة صرفية إلى معنى خاص بها يختلف عما تدل عليه الصيغة الأخرى، إذ معنى الآية فيه تشبيه للشرر المتطاير في حجمه ولونه وحركته في تطايره بجمالات صفر فأن الشرر لما فيه من النارية يكون أصفر

وقيل أسود، لأن سواد الإبل يضرب إلى الصفرة والأول في تشبيه العظم وهذا في اللون والكثرة والتتابع والاختلاط والحركة (ابن عاشور، ١٩٨٤، ج٢٩/٤٣٧، ابو السعود، ج٨١/٩).

فنرى قراءة (جمالات) بكسر الجيم جمع (جمالة) وهي اسم جمع لطائفة من الجمال أي تشبيه طوائف من الجمال متوزعة فرقاً وهذا تشبيه مركب، لأنه تشبيه في هيئة الحجم مع لونه وحركته (ابن عاشور، ١٩٨٤، ج٢٩/٤٣٧).

أما قراءة (جُمالات) بضم الجيم وألف بعد اللام جمع جمالة وهي حبال تشدّ به السفينة أي قلوب السفينة حبالها وواحدة (القُس) بقاف مفتوحة ولام ساكنة وهو هنا جمع جمالة بكسر الجيم موحدة كأنه جمع جَمَل نحو حَجَرٍ وحِجَارَةٍ أي كأن الواحدة منها جمالة فجاء التشبيه هنا في امتداده والتفافه (ابن عاشور، ١٩٨٤، ج٢٩/٤٣٨، القرطبي، ٢٠٠٦، ٥١٢/٢١، ابو السعود، ج٨١/٩).

وفي قراءة (جِمالت) بكسر الجيم من دون الألف بعد اللام على وزن رسالة جمع جَمَلٍ نحو حَجَرٍ وحِجَارَةٍ وهي قراءة حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف (الدمياطي، ١٩٩٨، ٥٦٨، ابن عاشور، ج٢٩/٤٣٨)، ومعناها أي ما بلغ حدّ النهاية ومرتبة كماله في العظم والكبر والنظم والتجمع وليس مخصوصاً بالإبل أو القلس (المصطفوي، ١٣٨٥، ١٣١/٢).

وان جميع الابنية الصرفية للمفردة القرآنية تؤدي معنى دلالي قرآني واحد يفيد بيان التهويل والتخويف ووجوه العذاب لأنه من يسمع قوله تعالى (إنها ترمي بالشرر كالقصر) يتسارع إلى ذهنه إن المراد إثبات عظمة تلك الشرارت المتطايرة وإذا سمع بعدها قوله تعالى (كأنها جمالات صفر) يتسارع إلى ذهنه ان المراد منها كثرة تلك

الشرارات وتتابعها ولونها أما من يسمع (إن الشرارات كالطراف) يبقى ذهنه متوقفا في إن المقصود بالتشبيه اثبات العظم أو إثبات اللون فالتشبيه بالطرف كالمجمل والتشبيه بالقصر والجماليات الصفر كالبيان والتفصيل والمكرر والمؤكد(الرازي ، ١٩٨١ ، ٢٧٨/٣٠) ، وهنا تتضح الصورة القرآنية لموقف العذاب بما تحمله تلك الابنية الصرفية من دلالات عميقة اثرت النص القرآني بنغم موسيقي مكثف يبعث الهلع والفرع في نفس المتلقي من شدة هول الموقف ، فتظهر دقة التحليل للنص القرآني والتفطن في انتقاء المفردة القرآنية بعدها اللبنة الاساسية في تشكيل السياق القرآني وتوظيفها داخل النص القرآني قصداً لمحددات دلالية وجمالية ، فالكلمة من أهم الوحدات الدلالية التي يجب على محلل النصوص الوقوف عليها ومعرفة دلالتها وما تؤديه من معانٍ داخل السياقات الواردة فيها وان يلتبس الدقة والروعة في تخير مفرداته وتنوعها في بنيتها الشكلية وحركاتها .

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهِرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتِوكُمُ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِّنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة / ٨٥) ، إذ كانت المفردة القرآنية المباركة (أُسَارَى) محط نظر النحاة واللغويين وذلك لاختلاف القراءة القرآنية فيها، إذ ذهب " حمزة بفتح الهمزة وسكون السين من غير الف (أُسْرَى) بالإمالة على وزن فعلى جمع (أسير) بمعنى مأسور وافقه الأعمش وكذا الحسن لكنه بالفتح وقرأ الباقر بضم الهمزة وفتح السين (أُسَارَى) على وزن (فعلى) جمع أسرى ك(سكرى) و(سكارى) وقيل جمع (أسير)" (الدمياطي، ١٩٩٨، ١٨٤).

إنّ لفظة أسارى هنا حال من الضمير في يأتوكم، ولما كان الأسير محبوساً عن التصرف في الأمور أشبه السكران والكسلان، لأنهما كالمحبوسين عن التصرف لاستيلاء السكر والكسل عليهما (الزحيلي، ٢٠٠٩، ٢٣٤/١)، وفرق أبو عمرو بين الأسرى والأسارى، فالأسارى الذين في وثاق أما الأسرى الذين في اليد كأنه يذهب إلى أن أسارى أشدّ مبالغة وقال علي بن عيسى الاختيار أسارى بالألف؛ لأن عليه أكثر الأئمة ولأنه دال على معنى الجمع إذا كان يقال بكثرة فيه (الرازي، ١٩٨١، ١٨٥/٣).

يتبين لنا أن تغير البنى الصرفية للكلمة الواحدة واختلاف الحركات الإعرابية يؤدي إلى تغير الدلالة السياقية للكلمة ذاتها، وهذا نابع من تعدد وجوه القراءات القرآنية للمفردة القرآنية، إذ إن تعدد الأبنية الاسمية واختلافها في النص القرآني مرتبط بوجوه القراءات مما يشير إلى اختلاف الدلالة وهذا الاختلاف لا يؤدي بنا إلى التناقض إنما هو اختلاف نابع من تعدد اللهجات في القراءة القرآنية لكون القرآن قد نزل بسبعة أحرف.

٢- التشديد والتخفيف

مثلت القراءات القرآنية مجالاً رحباً لا ينضب في الدراسات اللغوية، فنلاحظ في عالم القراءات ميل القبائل البدوية إلى الشدة في الكلام؛ لما في طبعها من جفاء وغلظة، لذلك تميز نطقهم بسلسلة من الفونيمات القوية غير أن أهل المدن يميلون إلى اللين والرقّة في كلامهم انسجاماً مع بيئتهم وطباعهم (الجندي، ١٩٨٣، ٦٥٧/٢)، ومن هنا نجد أن العرب آنذاك اختلفت ألسنتهم في النطق تبعاً لما في النفوس من معان مرادة، فتارة يميلون إلى الشدة في الكلام لما فيه من القوة والتأكيد على الفعل، وتارة أخرى يميلون إلى الرقّة والتخفيف؛ وذلك لأنّ "الأصوات تابعة للمعاني فمتى قويت قويت ومتى ضعفت ضعفت ... زادوا في الصوت لزيادة المعنى واقتصدوا فيه لاقتصادهم فيه" (النعيمي، ١٩٨٠، ٢٨٤)

وكما جاء في قوله تعالى : ﴿إِلَّا أَمْرَاتُهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (الحجر : ٦٠) ، فقد اختلف القراء في قراءة (قَدَرْنَا) ، فقرأ أبو بكر بتخفيف الدال من القدرة وقرأ الباقر بتشديدها وهما لغتان بمعنى التقدير أي كتبنا (الدمياطي، ١٩٩٨، ٣٤٧) ، ومعناها في التخفيف أي (قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ) الباقرين مع الكفرة لتهلك معهم فقدرنا غبورها معهم وذهابها وهلاكها (ابو السعود، ٨٣/٥ ، ابن عاشور، ١٩٨٤، ٦٢/١٤) ، أما قراءة الجمهور فكانت بالتشديد على معنى التقدير والقضاء إذ يقال قَدَّرَ الإله كذا تقديرًا (ابن منظور، ٧٤/٥) ، ومثله في قوله تعالى : ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (الاعلى : ٣) قرأها الكسائي وابو عبد الرحمن السلمي بتخفيف الدال من القدرة اما الباقر والفراء (ت ٢٠٧ هـ) بالتشديد للاجماع عليه وهي من التقدير والموازنة بين الاشياء (الدمياطي ١٩٩٨، ٥٨٠، الفراء، ١٩٨٣، ٢٥٦/٣) ، فالتقدير المشار إليه في الآية مصدرٌ ويراد به اعطاء المقدار والحدّ للشيء ولكل شيء مقدارٌ وحدٌّ إِلَّا اللهُ سبحانه فهو الذي أعطى المقدار والحدّ لكل الخلق (الصدر، ٢٠١١، ٩٦/٣) أي قَدَّرَ لكل حيوان ما يصلحه فهدها إليه وعرفه وجه الانتفاع به وهدايات الله تعالى للانسان إلى ما لا يحدّ من مصالحه وما لا يحصر من حوائجه في أغذيته وأدويته وفي أبواب دنياه ودينه وإلهام البهائم والطيور وهوام الارض باب واسعٌ وبعيد (الزمخشري، ٢٠٠٩، ١٧٧٥/٤) و هذا فرق واضح يبدو جلياً للناظر بين المعنيين في القراءة يتبعه فرق بين البنيتين الصرفيتين إذ التقدير بمعنى القضاء والإتمام بالحكم القاطع الذي من جانب الله تعالى إذا تم وانقضى، والقَدَرُ فيلاحظ فيه مرتبة بعد مرتبة القضاء وهي عبارة عن تعلق الحكم وتحققه في الخارج بخصوصيات خارجية فالنظر في القضاء إلى جهة الحكم القاطع من حيث هو وفي التقدير إلى جهة تحققه وتميزه بخصوصيات معينة (المصطفوي، ١٣٨٥، ٢٣٠/٩) ، فقد وظف القرآن الكريم الحركة واطهر بواسطتها المعنى واثره في دلالة السياق، وهذا ما انتبه اليه القراء عند قراءتهم .

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَرْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (التحریم: ٣) ، ففي النص الالهي المبارك ذهب القراء مذهبين في قراءة المفردة القرآنية (عَرَّفَ) ذهب " الكسائي بتخفيف الراء على معنى المحازاة أي حاز على بعض وأعرض عن بعض تكراً وعلماً والباقون بتشديدها فالمفعول الأول محذوف أي عرف الرسول (ص) حفصة بعض ما فعلت " (الدمياطي، ١٩٩٨، ٥٨٤) ولفظة (عَرَّفَ) بالتخفيف في دلالتها المعجمية تدل على أصل المعرفة والعرفان فنقول: عَرَّفَ فلانٌ فلاناً عرفاناً ومعرفة وهذا أمر معروف (ابن فارس، ١٩٧٩، ٢٨١/٤) ، أما دلالاته السياقية في التشديد هي على معنى المجازاة أي " جازى عليه كما تقول لمن تتوعدُّه : قد عَلِمْتُ ما عَلِمْتَ وقد عَرَفْتُ ما صَنَعْتَ فتأويله : فسأجازيك عليه لا أنك تقصد إلى أنك قد عَلِمْتَ فقط ومثله قوله تعالى : ﴿ وَ مَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ﴾ فتأويله يعلمه الله ويجازي عليه . فإن الله يعلم كل يُفَعِّلُ . أي جازى على بعض الحديث" (الزجاج، ١٩٨٨، ١٩٢/٥) ، وتظهر سيميوطيقيا الحركة بصورة جلية في التأكيد على مسار الدلالة داخل السياق النصي بما يتلائم مع الحركة إذ كان للحركة قدرة في توجيه المعنى مركزة على التباين الدلالي في القراءة بين التشديد والتخفيف وارتباطهما دلالياً إذ تتناسب الشدة في الراء مع معنى المجازاة لما يصدر من الأفعال ، والخفة تتناسب مع الاصل اللغوي في المعرفة ، وبالتالي يمكن الحكم على ان القراء يركزون على الحركات ويوظفونها داخل المفردة بما تحمله من أصل معجمي وتجاوز هذا وصولاً بهم الى توظيف الحركة داخل المفردة بما تحمله من ظلال سياقية تتناسب مع الفضاء النصي .

المبحث الثالث

التوجيه النحوي للقراءات القرآنية

لا جرم أن القراءة القرآنية من أهم علوم العربية التي ساعدت على إغناء الدرس النحوي في مجال التقعيد ، وتعدد الأوجه الإعرابية لكل قراءة، الذي بدوره أثرى الدرس النحوي بالعديد من القواعد النحوية التي يستوجب الوقوف عليها وتبسيط الضوء على اختلاف الدلالة فيها مع اختلاف القراءات القرآنية فيها.

إنّ أبرز ما يميز الجانب النحوي هو تغير الحركات الإعرابية في الحرف الواحد عند اختلاف القراءات الذي يفضي إلى تغير الدلالة، فالحركة الإعرابية تحمل سيميائية خاصة، إذ لها علاقة وطيدة بالمعاني وإظهارها للمتلقى، ودورها البارز في تشكيل الكلمات وبيان صورتها ورسم الحدود النطقية لها، ولكون اللغة العربية لغة دقيقة في انتقاء المفردات التي تعبّر عن المعاني المضمرة والظاهرة فقد أولت اهتماماً بارزاً في الحركات الإعرابية، وبيّنت نوع العلاقة بين الحركة والحرف، ومن ثم نجد الفارق الكبير بين الحركات الإعرابية والمعاني لكل منها، في حينها أن الحركة "صوت خفي مقارن للحرف" (السهيلي، ١٩٩٢، ٦٧) ، وفي الوقت ذاته يعمل هذا الصوت الخفي على كشف الدلالة للنصوص.

وينتج عن هذا التباين الإعرابي تبايناً في الدلالة القرآنية مع اختلاف الأوجه الإعرابية للآية الواحدة، إلا أنّ ذلك الاختلاف الدلالي لا يتناقض مع ما يوجبه القرآن الكريم من دلالات معينة وهي إما النصح أو الإرشاد ، والتنبيه والتحذير، أو الوعد والوعيد ... إلخ من الدلالات العامة والخاصة ومن أمثلة ذلك الاختلاف:

١- التباين الإعرابي بين الرفع والنصب

ومن أمثلة ذلك التباين في التوجيه النحوي ماجاء في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٣٧) . اختلف في قراءة الآية، فذهب ابن كثير على نصب (آدم) ، ورفع (كلمات) أي على إسناد الفعل إلى الكلمات وإيقاعه على آدم فكأنه قال (فجاءت كلمات من ربه على آدم)، أما الباقيون فعلى قراءة الرفع لآدم ونصب (الكلمات) بالكسرة أي إسناداً لآدم وإيقاعاً على الكلمات والمعنى (أخذها بالقبول ودعا بها) (الدمياطي: ١٧٦، ١٩٩٨). وحجة من رفع (آدم) أن الله لما علّم آدم الكلمات أمره بهن فتلقاهن بالقبول، ولما نصب آدم ليدل على أن ماتلك فقد تلقته وما نالك فقد نلته وهذا مايسميه النحويون بالمشاركة (ابن خالويه، ١٩٧٩، ٧٥/١) ، ويرى القرطبي ت (٦٧١ هـ) والفراء (٢٠٧ هـ) أن القراءتين ترجعان إلى معنى واحد؛ لأنّ آدم إذا تلقى الكلمات فقد تلقته أي إن مالتيك فقد لقيته وما نالك فقد نلته (الفراء، ١٩٨٣، ٢٨/١ ، القرطبي ، ٢٠٠٦، ٤٨٤/١) ، فالمسند إليه يكون مرفوعاً دائماً بأثقل الحركات وهي الضمة لذا رفع المسند إليه الفاعل لقلته ونصب المفعول لكثرتة وليقل في كلامهم ما يستثقلون ويكثر في كلامهم ما يستخفون (ابن جني، ٢٠٠٦ ، ٤٩/١) ، ورغم ذلك التباين في القراءتين بين الرفع والنصب إلا أنّ الدلالة تتضح لكل منهما وإن كانتا ترجعان إلى معنى واحد .

٢- بين الرفع والجر :

تتضح الدلالة القرآنية للآيات الكريمة مع ظهور الحركات الإعرابية وتوجيهها نحويًا في الآيات المباركة ومن اختلاف المعاني مع توجيه القراءة بين الرفع والجر ما يمكن أن نستشفه من قراءة النص المبارك ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ (الرحمن: ١٢٩) وردت في النص القرآني المبارك قراءتان للمفردة القرآنية (الريحان) (الدمياطي ، ١٩٩٨، ٥٢٦):

- ١- قرأها حمزة والكسائي بالجر عطفاً على (العصف) ووافقهم في تلك القراءة الأعمش.
- ٢- قرأها الباقون بالرفع عطفاً على المرفوع قبلها أي : فيها فاكهة وفيها الحب و(ذو) صفته.

قُرئ (الريحان) بالكسر ومعناه الحب ذو العصف الذي هو علف الأنعام والريحان الذي هو مطعم الناس (الزمخشري: ٢٠٠٩، ٢٧/١٠٧٠) ، إذ الكسرة حركة أقرب ما تكون إلى الحركة المعيارية (ا) لكن مقدمة اللسان تكون أقل ارتفاعاً نحو الغار (الحنك الصلب) من الحركة المعيارية الأولى وأعلى نقطة في هذا الجزء من اللسان نحو الخلف قليلاً من الحركة الأولى وبذلك فالكسرة تعدّ حركة أمامية (بهنساوي، ٢٠٠٨، ١٢٤) ، وعلى هذا التوجيه يكون (الريحان) مجروراً معطوفاً على ما قبله وهو (ذو العصف) وتقدير الكلام (ذو العصف والريحان) (الرازي ، ١٩٨١، ٢٩/٩٥، ابن خالويه، ١٩٧٩، ٣٣٨) .

وفي قراءة الرفع يذهب الرازي (٦٠٦هـ) إلى أنه معطوف على الحب، ويبين أنه يحتمل وجهين هما: "أحدهما أن المراد من الريحان المشموم فيكون مغايراً للحب فيعطف عليه، والثاني أن يكون التقدير (ذو الريحان) بحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه كما في (أسال القرية) (يوسف / ٢٢)، وهذا مناسب المعنى الذي نكرنا" (الرازي، ١٩٨١، ٩٥) ، ويرى الزمخشري بالضم على (ذو الريحان) فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقيل معناه وفيها الريحان الذي يشم وفي مصاحف أهل الشام (والحب ذو العصف والريحان) أي وخلق الحب والريحان أو أخص الحب والريحان، ويجوز أن يراد (وذا الريحان) فيحذف المضاف ويقام المضاف إليه مقامه (الزمخشري ، ٢٠٠٩، ٢/١٠٧٠).

على هذه القراءة يكون (الريحان) مرفوعاً عطفاً على ماتقدم عليه من قوله تعالى (والحب) والمعنى (فيها فاكهة وفيها الحب ذو العصف وفيها الريحان) (بن زنجلة، ١٩٩٧،

(٦٩١) ، فالضمة أقرب ما تكون إلى الحركة المعيارية (u) غير أن الجزء الخلفي من اللسان يكون أقل ارتفاعاً نحو الحنك الرخو المطبق من الحركة المعيارية وأعلى نقطة في هذا الجزء من اللسان تكون أمام أعلى نقطة للحركة الثامنة فتكون الضمة حركة خلفية(بهنساوي،٢٠٠٨، ١٢٤) ، والفارق بينها وبين الكسرة أن فجوة الفم تكون في الضمة أكبر عند النطق منها في نطق الكسرة؛ لأن الفك الأسفل يكون أشد انخفاضاً بحيث يسمح للسان أن يرتد إلى الخلف، أما الشفتان فأنهما تكونان مفتوحتان بالكاد ومتقدمتين نحو الأمام بشكل مدور(بركة ،دت، ١٣٢) .

من الوجوه الأخرى التي قُرئت بها (الريحان) هي النصب، فقرأه ابن عامر بالنصب في الثلاثة وحجة النصب فيها أنه عطفهن على(الأرض) حملاً على معنى الناصب (الأرض) في قوله (والأرض وضَّعها للأنام) ف(وضعها) يدل على (خلقها) وكأنه قال: وخلق الأرض خلقها، وخلق الحَبَّ ذا العصف والريحان، ف(الحب) ما يؤكل و(العصف) الورق وقيل هو: التين، والريحان الورق(القيسي،٢،١٩٨٤/٢٩٩).

نلاحظ في ذلك كله أن اختلاف الأوجه الإعرابية يتبعه تغير في المعاني السياقية للنص القرآني مما يدعو ذلك إلى التدبر والتأمل عند كل وجه إعرابي ودلالته الخاصة به واثر الحركة بتجديد المعنى على وجوه عدة.

٣- بين الكسر والفتح

المتأمل في اختلاف القراءة القرآنية في الحركات الإعرابية للحرف الواحد يولد دلالات عدة قد تختلف فيما بينها أو تتفق لبعض النصوص المقدسة، فقد اختلف القراء في قراءة (لا إيمان لهم) في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَكُنُوا أَيْمَانَهُمْ مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾(التوبة: ١٢) ، فذهب ابن عامر

بكسر الهمزة مصدر (آمن) والباقون بالفتح جمع (يمين)"(الدمياطي، ١٩٩٨، ٣٠٢) ،
فدلالة الحركات الإعرابية في اللفظة القرآنية وأثره على تغير معنى النص القرآني واضح، إذ
نجد دلالة اللفظ في حركة الكسر على معنى أنهم كفرة لا إسلام لهم فهم ليسوا بمؤمنين
ومن لا إيمان له لا عهد له لانتفاء الوازع(الفراء، ١٩٨٣، ١/٤٢٥ ، ابن عاشور، ١٩٨٤،
١٠/١٣٠) ، ومن ثم تكون على معنيين بالكسر أما أنهم كفرة لا إيمان لهم أو أنهم لا
يعطون أماناً فهو هنا مصدر بمعنى إعطاء الأمان أي لا سبيل إلى أن تعطوهم أماناً بعد
ذلك.

جاءت دلالة القراءة بالفتح التي تعدّ من أخف الحركات التي يستحبها العرب إيداناً
بمعنى نقضهم عهدهم الذي عقده بأيمانهم فهم على الحقيقة لا يراعونها ولا يعدون نقضها
محذوراً وإن أجروها على سنتهم وإن نكثوا وطعنوا كما هو المتوقع منهم، إذ لا إيمان لهم
حقيقة حتى لا ينكثوها أو لاستمرار القتال الأمور به المستفاد من سياق الكلام كأنه قيل
فقاتلوهم إلى أن يؤمنوا أنهم لا أيمان لهم حتى يعقد معهم عهداً آخر(الماوردي
،دت، ٣٤٥/٢، ابو السعود،دت، ٨٤/٤).

هنا تتضح الدلالة النصية في النصوص المباركة واختلاف القراءة القرآنية بتلون
الحركات للمفردة في النص القرآني، وفي الوقت ذاته عمل هذا الاختلاف على بيان المعنى
الدلالي كون الحركات إحدى القرائن التي يستعين بها القارئ لفهم النص عند غياب القرائن
الأخرى.

المبحث الرابع

التوجيه الدلالي للقراءات القرآنية

عدّ الجانب الدلالي من أهم الجوانب اللغوية التي عنى بها القراء للكشف عن المعنى الذي تؤديه النصوص القرآنية وفقاً للقراءات المتعددة وإظهار المعاني بوساطة الربط بين القراءة وتعليلها وفقاً لتخرجاتهم الدلالية وإبراز أثر القراءة في تغيير الدلالة:

١- السياق

كان السياق محوراً أساسياً من محاور علم المعاني، لكون الدلالة جزءاً من السياقات النصية لا يمكن أن تفترق عن المكون السياقي، لذلك كان للسياق أثر في تحديد دلالة الكلمات داخل النص، ولا يخفى أن للحركات الإعرابية أثراً فاعلاً في توجيه الدلالة داخل النص، إذ ساهمت الحركات الإعرابية على إبراز الدلالة للعديد من النصوص، وهذا ما يمكن أن نلمسه في كتاب اتحاف فضلاء البشر، إذ وجهت بعض القراءات القرآنية التي وردت فيه توجيهاً دلالياً ساعد على فهم النص القرآني بحسب الحركات الإعرابية.

ومن أمثلة التوجيه الدلالي لاختلاف القراءة ماورد في قراءة (حَمَّالَةٌ) من قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ (المسد: ٤) إذ وردت فيها قراءتان (الدمياطي، ١٩٩٨، ٦٠٦) :

١- النصب على الذم وقيل على الحال من (وامرأته) لأنها فاعل لعطفها عليه و(حمالة) حينئذ نكرة أريد بها الاستقبال أي حالها في النار وافقه ابن محيىن .

٢- الرفع لأنها حينئذ تعرب خبر محذوف أو خبر امرأته وفي غيرها خبر ثان، ومن جعلها صفة لامرأته قدر المضي فيها لأنه قد وقع على الحقيقة فتتعرّف حينئذ بالإضافة، وجعلها بعضهم بدل كل من كل.

فعلى قراءة عاصم بالنصب؛ لأنها اشتهرت بذلك فجاءت الصفة للذم لا للتخصيص كقوله تعالى: ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾ (الاحزاب: ٦١) ، أو أنها على الحال من امرأته بناءً على أن الإضافة غير حقيقية، إذ المراد أنها تحمل يوم القيامة حزمة من حطب جهنم كالزقوم والضريع، أو أنها مع كثرة مالها كانت تحمل الحطب على ظهرها لشدة بخلها فغيرت بالبخل، لذا كان النصب فيها على الشتم (القرطبي، ٢٠٠٦، ٢٢/٥٥٣ ابو السعود، دت ٢١١/٩).

أما على الرفع فعلى وجهين: الوجه الأول (سيصلى نار جهنم هو وامرأته حمالة الحطب)، وهنا تكون نعتاً لأمرأته، فيحتمل أنها صفتها في جهنم، أما الوجه الآخر (وامرأته حمالة الحطب في النار)، أي إنها صفتها التي كانت تعمل في الدنيا بجلب حطب العضاة لتضعه في طريق الرسول (ص) على طريقة التوجيه والإيماء إلى تعليل ذلك وتعذيبها بذلك (ابن عاشور، ١٩٨٤، ٦٠٦/٣٠، الفراء، ١٩٨٣، ٢/٢٩٨) أو الرفع على وجه الابتداء وحمالة نعتها (في جيدها حبل من مسد) يكون خبر الابتداء (الزجاج، ١٩٨٨، ٣٧٥/٥) ، ونستشف من هذا التوجيه في القراءة للنص القرآني واختلافه ما بين الرفع والنصب تباين الدلالة ما بين النصب على الحال ذمًا لها وبين الرفع بأنها صفتها التي كانت تتصف بها، فلحركات اشعاعات دلالية تعمل على تكثيف المعنى وازهاره بصورة مناسبة للمعنى القرآني لما فيه من تركيز دلالي داخل البنية الصرفية والتي تندرج مع الدلالة السياقية للنص الالهي المبارك.

ومن أمثلة الاختلاف في القراءة القرآنية وأثره على تغير المعنى النصي قوله تعالى : ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَّا وَّرَاءَ ذَلِكَ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ٢٤)

مما جاء في اتحاف فضلاء البشر اختلاف القراءة في لفظة (المحصنات) قراءها "الكسائي بكسر الصاد لأنهن يحصن أنفسهن بالعفاف أو فروجهن بالحفظ إلا الأول هنا وقراءه بالفتح لأن المراد به المزوجات (وعن) الحسن الكسر في الكل والباقون بالفتح أسند الأحصان الى غيرهن من زوج أو ولي أو الله تعالى " (الدمياطي، ٢٣٩، ١٩٩٨) ، ويعود الاصل اللغوي للفضة الى الثلاثي المجرد (حصن) أي كل موضع حصين لا يُوصل إلى مافي جوفه أي المنع (ابن منظور ،دت، ١١٩/١٣) ، ونلاحظ اختلاف الدلالة السياقية عند كل قراءة إذ تشير الدلالة المعجمية بفتح الصاد إلى نوات الأزواج اللاتي احصنهن أزواجهن أما في الكسر فهي تعني إلى أنهم أسلمن فأحصن أنفسهن فهن مُحصنات (ابن منظور ،دت، ١١٩/١٣-١٢٠) ، فجاءت الدلالة السياقية لقراءة الفتح موافقة للدلالة المعجمية مشيرة الى نوات الأزواج اللاتي احصنهن التزوج أو الأزواج وأعفهن عن الوقوع بالحرام وصيغ على أسم الفاعل ليبدل على أنهم احصن فروجهن عن غير أزواجهن أو أحصن أزواجهن فجاء الفتح محمولاً على الشذوذ كما في نضيره ملقح ومسهب من ألقح وأسهب (ابو السعود،دت، ١٦٣/٢) ، يتضح أن للحركة اثر كبير في تحديد معنى اللفظة داخل السياق وتوجيه المعنى الكلي للسياق وإن كان هناك تقارب في الدلالة ما بين التوجيهين وهي في الاحصان والمنع سواء كان هذا الاحصان من نوات الأزواج أو من انفسهن دون زواج ، فاللفظة بما احتوته من صوائت تعد قرائن يمكن ان يستند عليها السياق في تحديد وجهته الدلالية تحمل معنى متنوع وهو المعنى المعجمي الوارد في المعجمات اللغوية ومعنى مُقَدَّر داخل السياق عملت الحركة في تقديره وتحقيقه .

ومن المسائل للتوجيه في القراءات التي يظهر فيها أثر الجانب الدلالي بشكل بارز في النص، إذ تتغير دلالة السياق النصي تبعاً لتغير الحركات الإعرابية مسألة الالتفات التي يراد بها الانتقال في الكلام من أسلوب إلى آخر، أي إنه الانزياح في الخطاب عما هو متعارف عليه، ومنه ما عالجه القراء حسب هذه الظاهرة قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِنكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (ال عمران/٣٦)

إذ نلمس تغير دلالة السياق للنص القرآني ما بين اختلاف الحركة الإعرابية للفظة القرآنية (وضعت) ما بين الرفع والنصب، إذ قرأها ابن عامر وأبو بكر ويعقوب بسكون العين وضم التاء (وضعت) على أنها من كلام أم مريم، أما الباقون فعلى قراءة الفتح للعين والتاء للتأنيث الساكنة (وضعت) على أنها من كلام الباري عز وجل (الدمياطي، ١٩٩٨، ٢٢٢).

إذ إن معنى النص القرآني في توجيه الرفع يدل على أن (وضعت) من جملة كلامها فالكلام متصل وفيه معنى التسليم لله والخضوع والتتزيه له أن يخفى عليه شيء إذ لم نقله على طريق الأخبار لأن الله عالم في كل شيء قد تقرر في نفس المؤمن دائماً إنما قالته على سبيل التعظيم والتتزيه لله (القرطبي، ٢٠٠٦، ١٠٢/٥).

أما معنى السياق في توجيه النصب فيدل على من كلام الله تعالى والضمير راجع إلى امرأة عمران وهو حينئذ ليس كلامها المحكي، إنما هو كلام الله والمراد به أنه أعلم منها بنفاسة ما وضعت، وأنها خير من مطلق الذكر الذي سألته، فالكلام إعلام لأهل القرآن بتغليطها وتعليم بأن من فوض أمره إلى الله لا ينبغي أن يتعقب تدبيره (ابن عاشور، ١٩٨٤، ٢٣٣/٣)

، فالكلام هنا قُدّم وتقديره التأخير بعد (وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) (القرطبي، ٢٠٠٦، ١٠٢/٥) ، وهنا يظهر أن "كاتب النص إذا اراد لفت النظر الى بعض المواطن في نصه ويسعى الى مراقبة القراءة فعليه ان يعتمد في العبارة على غير المؤلف وأن يضع اطمئنناً اللغوي الحاصل في حرج مثير للانتباه بأن يبرز في السياق عنصراً لم تكن ننتظر ان يبرز أو أن نسبة توقع بروزه ضعيفة بالمقارنة بنسبة توقع عناصر أخرى" (صمودي، ١٩٨٨، ١٦٩).

وهنا نجد أن الحركة الإعرابية كانت المحور الأساس في اختلاف الدلالة وتباين المعاني السياقية للنص القرآني، ولا يخفى أنها من القرائن الهامة التي يلجأ إليها المحلل اللغوي عند افتقار النص إلى القرائن الأخرى.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا يَخْفُونَ وَمَا يَعْلِنُونَ﴾ (النمل / ٢٥) ، فقد اختلفت القراءة في الفعلين (يخفون ويعلمون)، إذ ذهب حفص والكسائي على قراءتهما بالتاء على الخطاب وأما الباقون فقرأوهما بالياء (الدمياطي ، ١٩٩٨ ، ٤٢٧-٤٢٨) وقراءتها بالياء يؤذن بعموم صفة العلم، أما في قراءة حفص والكسائي ففيها نوع من الالتفات في الخطاب القرآني والتحول في الكلام من الغيبة الى التكلم أي : يسجدوا ، يخرج ، يعلم ← تخفون ، تعلمون

هذا النوع من التحول في صيغ الخطاب في بُنى الأفعال الواردة في النص المبارك يظهر القيمة الفنية لأسلوب الالتفات "فإن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجراءاته على أسلوب واحد" (الزمخشري، ٢٠٠٩، ٢٩/١) لذلك عرف السياق في ضوء الالتفات بأنه "بنية لغوية يقطع نسقها عنصر غير متوقع" (صمودي، ١٩٨٨، ١٦٩) فمعالجة القرآن الكريم للاساليب التعبيرية

وتنوعها داخل السياق القرآني تقوم على أساس ابراز الدلالة عند تحليل النصوص القرآنية ومعرفة الاسباب الكامنة والمعاني المبتغاة من وراء ذلك كله وهذا النوع من التنوع الاسلوبي في الخطاب القرآني ماتتبه له القراء وحاولوا بيان اسراره والوقوف على اثره في دلالة النص القرآني كبنية كلية .

الخاتمة

إنّ النظر في النص القرآني وقراءاته القرآنية والتنبه إلى تعدد القراءات القرآنية للمفردة القرآنية الواحدة يحتاج إلى تدبر وتأمل، لارتباطه بالمعاني النصية للقرآن الكريم، ولأنّ القرآن الكريم أنزل بلسان العرب وقد بين الله تعالى ذلك في قوله جلّ وعلا (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ) (الشعراء / ١٩٥)، لذا أصبح النص القرآني محط نظر للعرب آنذاك، وأن نزوله باللسان العربي قد وجه الدراسات اللغوية بمستوياتها الأربعة إلى دراسة أساليب نظمه وإعجازه، فظهرت لنا ثلثة من الكتب التي اجتهدت على دراسته واستجلاء أسراره بغية الوصول إلى المعاني القرآنية السامية ومن هذه الدراسات كتابنا نموذج البحث (المسمى تحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر) للشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الله المعروف بالبناء (ت ١١١٧هـ)، الذي يعدّ من كتب القراءات القرآنية التي حوت بين دفتيها مادة ثرية بالتوجيهات اللغوية القرآنية التي تسعى الى خدمة القرآن العظيم ودلالته.

ومن أهم النتائج التي وقف عليها البحث واستشفها في رحلته القصيرة الأمد مع الكتاب:

١- إنّ القراءة القرآنية في توجيهها للنص القرآني تضع الدلالة محورا أساسياً، إذ يعمد القراء في قراءتهم للنصوص القرآنية ومراعاة التباين في الحركات الإعرابية إلى بيان الدلالة.

٢- إنَّ التعامل مع النص القرآني وقراءاته يضع بين أيدينا أرث لغوي كبير لما تنتجه القراءات القرآنية من كم هائل من القواعد النحوية لكون القرآن الكريم مصدر الاستشهاد الأول من مصادر الاستشهاد النحوي التي يجب الوقوف عليها واعتمادها.

٣- عمد القراء على الربط بين الوجه الإعرابي والمعنى لكون الحركة الإعرابية قرينة من القرائن التي يلجأ إليها عند غياب القرائن الأخرى فلا يمكن أن تأتي الحركات الإعرابية في المفردات من دون أن تكون هناك غاية وفائدة مرجوة من الإتيان بها فتوظيف القرآن الكريم للحركة له اسرار عجيبة في المعنى لا يمكن ان تظهر في أي نص اخر غير القرآن .

٤- كان الربط بين المعنى والقراءة أحد الأسس التي قامت عليها القراءة القرآنية، إذ يعمد القراء على بيان العلة في اختيارهم للقراءة القرآنية .

٥- عالج القراء في قراءتهم القرآنية مسائل لغوية متعددة منها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، وذلك لكون أغلب القراء هم من النحاة.

٦- تنبه القراء إلى اختلاف الدلالة أثر القراءة القرآنية في مجالات:

أ- الأصوات وتخيرها ما بين الأبدال في الأصوات وهل هناك من أثر دلالي حول التباين في تخير الأصوات كما عالجوا ظاهرة الإشمام كونها أحد الظواهر المهمة التي استحوذت اهتمام القراء واختصاصها بحالة الرفع وأثر المزج بين الحركات في المعاني، إذ يعد الصوت أصغر وحدة تركيبية تعمل على بيان المعنى لما يحمله ذلك الفونيم من خصائص صوتية خاصة به.

ب- إنَّ المستوى الصرفي هو ثاني المستويات اللغوية التي تعمل على بيان المعاني، كونها تتألف من فونيمات صغرى وتحمل في ذاتها معانٍ خاصة، إذ لكل بنية صرفية دلالة خاصة لا يمكن أن تؤديها البنية الأخرى، فدلالة (فاعل) لا يمكن أن تماثل دلالة (مفعول) و(فعال) وهكذا، أضف إلى ذلك التفاتهم إلى ظاهرة التشديد والتخفيف في بعض الألفاظ القرآنية وتركيز الدلالة في كل منهما حيث تتركز الدلالة وتقوى المعاني المرادة عند الشدة والتركيز على الحرف داخل الصيغة المفردة على العكس منها في حالة التخفيف.

٧- يعد المستوى التركيبي من المستويات الهامة التي تتضح فيها المعاني وإن كانت تنقسم بدورها على المعاني السطحية والمعاني العميقة كما عبر عنها عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز (المعنى، معنى المعنى)، وأوضح ذلك القراء في دراستهم القرآنية، إذ نجدهم عالجوا العديد من المسائل النحوية وبينوا أسبابها وعولوا في ذلك كله على تغيير الوجه الإعرابي فيها وما تحمله الحركات الإعرابية من دلالات مهمة داخل التركيب النصي وتوجيه المعاني تبعاً لكل حركة منها، وكما نعلم أن الحركات في العربية هي ثلاث مرتبة من الأخف إلى الأثقل (الفتحة، والكسرة، والضمة) ولكل حركة إعرابية مخرجها الذي تتبع منه الخفة والثقل، وكثيراً ما تأتي الحركة الثقيلة لبيان القوة والصلابة في الدلالة على عكس الحركة الخفيفة التي يرافقها اللين والضعف وقد تم اختيار الحركات في المفردات وفقاً لمقاصد دلالية ونفسية جمالية في آن واحد .

٨- يعدّ الجانب الدلالي من أهم الجوانب اللغوية التي يسعى إليها الدارسون قديماً وحديثاً؛ كونها المحور الأساس الذي يحمل على عاتقه الفائدة المرجوة من إيجاد النص، وقد

تنوعت الظواهر الدلالية التي عني بها اللغويون في دراساتهم، وكان من أهمها الحركة الإعرابية وأثرها داخل السياق النصي وتغير دلالة النص بتغير الحركة الإعرابية، ولا يخفى أيضاً تنبهم إلى ظاهرة الالتفات التي تعد مظهراً من مظاهر الانزياح النصي التي تنبه لها القراء وعنوا بها وبينوا المقاصد الدلالية والنفسية.

المصادر :

- ١- اتحاف فضلاء البشر في القراءات الاربعة عشر : للشيخ شهاب الدين احمد بن محمد بن عبد الله المعروف بالبناء ت١١١٧هـ ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، (١٤١٩-١٩٩٨م) .د.ط
- ٢- أرشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم : أبي السعود محمد بن محمد العمادي (ت٩٨٢هـ) . دار احياء التراث العربي ، بيروت - لبنان.د.ط
- ٣- التجديد في الاتقان والتجويد ، ابي عمرو عثمان بن سعيد الداني الاندلسي ، تح غانم قدوري الحمد ، ط١ ، دار عمار - عمان ، ٢٠٠٠م - ١٤٢١هـ
- ٤- التحرير والتنوير . الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) .الدار التونسية - تونس ، سنة ١٩٨٤م.د.ط.
- ٥- التحقيق في كلمات القرآن الكريم :العلامة المصطفوي . مطبعة اعتماد . ط١ . ١٣٨٥ . مركز نشر اثار العلامة المصطفوي

- ٦- التفسير الكبير ومفاتيح الغيب: محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر (٥٥٤٤-٥٦٠٤) ، دار الفكر ، ط ١ ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .
- ٧- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج :وهبة الزحيلي ، دار الفكر ، ط ١٠ ، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م .
- ٨- روح المعاني ، شهاب الدين السيد محمود الالوسي البغدادي (ت١٢٧ هـ) طباعة المنيرية ، دار احياء ،بيروت -لبنان.
- ٩- الجامع لأحكام القرآن. ابي عبد الله محمد بن احمد بن ابي بكر القرطبي (ت ٦٧١ هـ) .تح: عبد الله بن عبد المحسن، محمد رضوان عرقسوسي . مؤسسة الرسالة . ط ١ ، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م .
- ١٠- حجة القراءات :ابي زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة . تح : سعيد الافغاني بمؤسسة الرسالة . ط ٥ . ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م
- ١١- الحجة في القراءات السبع : ابن خالويه ، تح عبد العال سالم مكرم :دار الشروق -بيروت ، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .
- ١٢- الخصائص ، ابي الفتح عثمان بن جني ،تح محمد علي النجار ، ٢٠٠٦ الهيئة العامة لقصور الثقافة -القاهرة .
- ١٣- الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني :حسام سعيد النعيمي ، دار الرشيد ، ١٩٨٠ م .د.ط .

١٤- علم الاصوات ،حسام بهنساوي ، مكتبة الثقافة الدينية ، ط٢ ، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

١٥- علم الاصوات العام اصوات اللغة العربية ،بسام بركة ، مركز الانماء القومي ، لبنان -رأس بيروت.

١٦- في الاصوات اللغوية دراسة في اصوات المد العربية ،غالب فاضل المطلبي، دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٨٤م .

١٧- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) ،دار المعرفة ،بيروت -لبنان ، ط٣ ، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م .

١٨- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها .أبي محمد بن أبي طالب القيسي (٥٣٥ - ٥٤٣٧هـ) ، تح :محمد محيي الدين رمضان ،مؤسسة الرسالة ، ط٣ ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

١٩- لسان العرب .ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور .دار صادر -بيروت . د.ط

٢٠- اللهجات العربية في التراث :احمد علم الدين الجندي ، الدار العربية للكتاب ،١٩٨٣م . د.ط .

٢١- معاني القرآن واعرابه.ابي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج(ت ٣١١هـ) . تح

: د.عبد الجليل شلبي . عالم الكتب . ط١

٢٢- معاني القرآن .ابي زكريا يحيى بن زياد الفراء ت(٢٠٧هـ) . عالم الكتب . ط٣

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ م .

٢٣- معجم الصوتيات ،رشيد عبد الرحمن العبيدي ن٢٠٠٧م-١٤٢٨هـ ، ط١ مركز البحوث والدراسات الاسلامية .

٢٤- مفاتيح الغيب :الامام الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين محمد (٥٤٤هـ -

٥٦٠٤هـ) ، دار الفكر للطباعة -بيروت -لبنان ، ط١ / ١٤٠١هـ -١٩٨١م)

٢٥- مقاييس اللغة ، ابي الحسين احمد بن فارس بن زكريا ت(٣٩٥هـ) تح عبد

السلام محمد هارون ،دار الفكر ١٩٧٩م (١٣٩٩هـ)

٢٦- نتائج الفكر في النحو :لابي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي

(ت ٥٨١هـ)، تح : عادل أحمد عبد الموجود ، علي محمد معوض ، دار الكتب

العلمية - بيروت -لبنان . ط١/١٣١٢هـ -١٩٩٢م.

٢٧- النكت والعيون تفسير الماوردي : ابي الحسن علي بن محمد بن حبيب

الماوردي البصري (٣٦٤هـ - ٤٥٠هـ) ، تح :عبد المقصود بن عبد الرحيم .دار

الكتب العلمية ، بيروت -لبنان .د.ط.

٢٨- الوجه واللقب في تلازم التراث والحداثة .حمادي صمودي ، الدار التونسية

للنشر ، ١٩٨٨م.